هل يجوز تكفير المسيحيّين؟
قراءة من واقع الحياة في كتابَيْن مسلمَيْن حديثَيْن

الأب كميل حشيمه اليسوعيّ*

تبلّغتْ دار المشرق التي نتولّى إدارتها رسالةً مؤرّخة في الرابع من تشرين الأوّل ١٩٩٩، بَعَثَتْ بها إدارة مكتبة دار الفتوى الكريمة في بيروت، وتفيد دُور النشر أنّها «بحاجة إلى كلّ مَن يدعم انطلاقتها»، وتأمل تزويدها ما أمكن من مطبوعات تراثيّة وحديثة. فأحببنا أن نلبّي الدعوة هذه إلى المساهمة، إيمانًا منّا بضرورة التعاون الأخويّ، وإعلاءً لشأن مؤسّسة هي صرح من صروح الإيمان والمعرفة في لبنان، وقد مارسنا إلى تقديم عددٍ من المؤلّفات اللغويّة والأدبيّة والفلسفيّة والدينيّة تليق بالمقام المذكور. وما إن تسلّمتْ دار الفتوى هديّتنا الأخويّة المتواضعة حتّى بادرت بدورها فبعثت إلينا برسالة شكر لطيفة مرفقةٍ بثلاثة كتب طبع عليها ما يلي: «هديّة دار الفتوى في الجمهوريّة اللبنانيّة. المكتبة العامّة». والمؤلّفات الثلاثة هي: **الأوقاف الإسلاميّة في لبنان** لعبد الرحمن الحوت، وتعزيز الصحّة باتّباع أنماط الحياة الإسلاميّة (إعلان عمّان) - وسيأتي تعريفهما في الصفحات التالية -، والمنهل اللطيف في أصول الحديث الشريف لمؤلّفه السيّد محمّد بن علويّ بن عبّاس المالكيّ المكّيّ الحسنيّ، «خادم العِلم الشريف بالبلد الحرام». والكتاب الأخير هذا هو الثاني من «سلسلة الكتاب الجامعيّ»، ويُدرَّس في كلّيّة الشريعة بجامعة

(*) مدير «دار المشرق» ومجلّة المشرق.

بيروت الإسلاميّة، صَدَر بطبعته السابعة العامَ ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، علمًا أنّه «وقع الفراغ منه بمكّة المكرّمة في التاسع والعشرين من ربيع الثاني من شهور سنة ١٣٩٥هـ»، أي في أوائل العام ١٩٧٥[1].

جاء الكتاب في ٢٩٨ صفحة، مُخْرَجًا إخراجًا أنيقًا، شكّلًا تشكيلًا كاملًا، واضح العرض، بليغ الأسلوب. الفصل الأوّل فيه خاصّ بالسُّنّة وتعريفها ووظيفتها وتاريخ تدوينها وما إلى ذلك من أمورها، والفصلان الثاني والثالث مخصّصان بالحديث الشريف وأنواع علومه وأحكامها. أمّا الفصل الرابع فيعالج أمر الصحابة، بما في ذلك تعريف الصحابيّ وأدلّة عدالة الصحابة ونُبَذ مفصّلة عن عدد منهم. وفي الفصل الخامس ذِكْرُ طبقات كتب الحديث وأنواعها، في حين يتناول الفصل السادس والأخير أئمّة الحديث ومؤلّفاتهم. وينتهي الكتاب بخاتمة عنوانها «موقف المستشرقين من السنّة»، سنضطرّ إلى التوقّف عليها الآن لما تتضمّنه من كلام يسيء إلى شعور المسيحيّين، ولا نعجب لأن يُنشر اليوم، على الخصوص في لبنان.

فقد ورد في معرض تنديد المؤلِّف بالمواقف المعادية للإسلام التي يقفها، في رأيه، المستشرقون والمبشّرون - إذ لم يستثنِ منهم أحدًا قطّ! - ما نصّه بالحرف الواحد:

«وكلُّ هذا ليس بغريب، إذا علِمنا أنّ هذا المستشرق أو المبشّر لا يدين بالإسلام، وكلّ مَن لا يدين بالإسلام، فهو في نظر الإسلام كافر شقيّ، بعيد عن الحقّ، ضالٌّ خاسر، لا يُقْبَل منه صَرف ولا عدل، وأنّ ما عليه هو الضلال ما لم يرجع، ولذلك فلا يُتصوَّر أن يكون منصفًا غير متعصّب في حكمه أو دراسته للإسلام. إنّ الإنصاف والتجرّد وعدم التعصّب - إذا صدق أنّه سيلتزمه - معناه الحكمُ على نفسه بالكفر والشقاء

(١) ذكرنا هذه الأمور بشيء من التفصيل، مركّزين على النواحي الإيجابيّة الكثيرة بين المُهدي والمهدَى إليه، لنُظهر بعد ذلك في المقابل، وبمزيد من الوضوح، شائبةً خطيرة وردت في خاتمة الكتاب كنّا بغنى عنها وسوف نبيّنها.

والجهل، والبعد عن سبيل الحقّ والصراط المستقيم والخسران المبين، وهل يرضى بهذا عاقل؟

«فلا يمكن أبدًا أن تخلو بحوثهم أو دراساتهم من غمزات ولمزات بعيدة أو خفيّة، ولا يجوز لمسلم يؤمن بالله ورسوله ﷺ ويغار على دينه، أن يتلقّى ما يصدر عنهم بثقة واطمئنان وحسن ظنّ»[٢].

هذا ما كتبه السيّد محمّد بن علويّ الحسنيّ بقساوة ظاهرة منذ نحو ربع قرن، وما زال كتابه يردّده، إذ وصل إلينا اليوم في طبعته السابعة (العام ٢٠٠٠م) هديّةً من أعلى مرجع إسلاميّ سنّيّ في لبنان. ونحن، وإن كنّا لا نشكّ لحظة واحدة في حسن نيّة المرسِل الكريم، لا نخفي دهشتنا لصدور مثل تلك الأقوال في الكتاب المذكور، من وسط عاصمة بلد تميّز في الآونة الأخيرة بتواتر لقاءات الحوار والمودّة المخلصة بين أقطابه وعلمائه وأفراده المسلمين والمسيحيّين كافّة. وقد تروّينا كثيرًا قبل أن نطلق العنان لقلمنا في هذا الموضوع، متردّدين بين لزوم الصمت أو مقابلة المعنيّين، إلى أن رأينا من الأفضل، لا بل من الواجب، استعمال حقّ الردّ كتابةً على نصٍّ مكتوب نُشِر ووُزّع منذ سنوات وما زال يوزّع، عسى أن تلفت انتباه الجمهور، من مؤيّدي الكتاب أو معارضيه، ليكونوا على بيّنةٍ من حقيقة مَن أُلصِقَت بهم تهمة الكفر وبأسلوب جارح. ونقولها بادئ بدء ونكرّر: لا نريد أن نثير ضجّة، إذ قد لمسنا في الآونة الأخيرة كيف قامت الدنيا ولم تقعد بعدُ، لأنّ الفنّان المشهور مرسال خليفة لحّن بعض عبارات من القرآن الكريم من دون أن يراعي الأصول الشرعيّة. لا نريد الانفعال السلبيّ ولا نريد الجدال، فهو لا يجدي. إنّما نبغي فقط بيان الحقائق، من منطلق الحوار البنّاء، آملين أن تُقفَل نهائيًا أبواب المواقف التي تمسّ كرامة القريب، فيسود الاحترام، ونترك كلّ امرئ يعبد ربّه كما يشاء، فالله، على كلّ حال، هو الهادي وليس بمحتاج إلى مَن يذود عن كرامته بسهام الغمز

---

(٢) المنهل اللطيف، ص ٢٨٩.

واللمز، أو بسيوف أهل البطش والقتال في حروب دينيّة ولّى عهدها[٣].

وإنّنا، زيادةً منّا في الموضوعيّة، لن نبدأ وندافع عن أنفسنا، بل ندع إخوةً لنا مسلمين يقولون للسيّد محمّد بن علويّ ما يرونه من هذا التبيل. فقد طالعنا منذ عدّة سنين، وفي العام ١٩٨١ على وجه التحديد، سلسلةَ مقالاتٍ نَشَرها في مجلّة العربيّ الكويتيّة المسلم المؤمن والعلّامةُ المدقّق فهمي هويدي، دافَع فيها عن الإسلام تجاه مفسديه، كما نافح عن غير المسلمين أمام مَن تهجّم عليهم من أتباع الإسلام، وسنستشهد في ما يلي بمقاطع طويلة من إحدى المقالات تلك، وعنوانها: **المسلمون والآخرون: أشواك وعُقد على الطريق!**[٤].

قال هويدي، لا فُضَّ فوه:

«تحتاج قضيّة المسلمين والناس إلى قدر من المصارحة، وقدر أكبر من المراجعة والتصحيح.

«ليس صحيحًا أنّ المسلمين في هذه الدنيا صنف متميّز ومتفوّق من البشر، لمجرّد كونهم مسلمين. وليس صحيحًا أنّ الإسلام يعطي أفضليّة للمسلمين ويخصّ الآخرين بالدونيّة. وليس صحيحًا أنّ ما كتبه أكثر الفقهاء في هذا الصدد هو دين ملزِم وحجج لا تردّ، إنّما هو اجتهاد يصيب ويخطئ.

«إنّ دعاوى التميّز على الآخرين، وتكريس هذا التميّز من جانب أكثر الفقهاء، إنّما تستخدم لغة ليست مقبولة دينًا، فضلًا عن أنّها لغة باتت محلّ إدانة في هذا العصر.

---

(٣) قال المسيح لبطرس رئيس رسُله لمّا استلّ سيفه دفاعًا عن معلّمه حين اعتقله اليهود: «إغمد سيفك، فكلّ مَن يأخذ بالسيف، بالسيف يهلك». وأردف أنّه، لو أراد، لسأل الله أن «يمدّني، الساعةَ، بأكثر من اثني عشر فيلقًا من الملائكة» (إنجيل متّى، ٢٦: ٥٢-٥٣).

(٤) العربيّ، الكويت، ١٩٨١، عدد فبراير (شباط)، ص ٤٩-٥٢. إنّما المقالات الأُخَر فهذه بعض عناوينها: «جسور مفتوحة في الأرض والسماء»، مارس (آذار) ١٩٨١، ص ٤٨-٥١؛ «هُم أصحاب حقّ ولسنا أصحاب فضل»، أبريل (نيسان) ١٩٨١، ص ٣٨-٤١؛ «أهل الذمّة: قراءة في النصوص»، مايو (أيّار) ١٩٨١، ص ٣٧-٤١؛ إلخ.

«(. . .) إنّ هناك خللًا أكيدًا في علاقة المسلمين بالآخرين، خللًا في التصوّر وفي الوسيلة وربّما في الهدف أيضًا. ومن المفارقات المدهشة، والمحزنة في الوقت ذاته، أنّ بيننا مَن لا يكفّ عن صبّ اللعنات على هؤلاء الآخرين، متّهمًا إيّاهم بالكفر والضلال، بينما نحن جميعًا بتنا نعيش عالةً عليهم!

«لقد سمعت واحدًا من خطباء الجمعة اعتلى المنبر ليحدّثنا في أنّ المسلمين «خير أمّة أُخرجت للناس»، وذهب به الحماس حدًّا دفعه إلى أن يسفّه غير المسلمين جميعًا، ويتّهمهم بمختلف النواقص والمثالب، ثمّ يدعو الله في الختام - وحوله مئات من المصلّين يؤمنون - أن يدكّ بيوتهم ويزلزل عروشهم، ويفرّق شملهم ويهلك نسلهم وحرثهم!

«(. . .) شيء قريب من هذا سجّله الشيخ محمود أبو ريّة في كتابه دين الله الواحد، حيث روى أنّه شهد مجلسًا لبعض المشايخ، وجرى الحديث فيمن سيدخلون الجنّة ومَن سيحرمون منها فسألهم: وما قولكم في أديسون مخترع النور الكهربائيّ؟ فقالوا: إنّه سيدخل النار. فقال لهم الشيخ أبو ريّة: بعد أن أضاء العالم كلّه حتّى مساجدكم وبيوتكم باختراعه؟ فقالوا: ولو، لأنّه لم ينطق بالشهادتَيْن!

«فقال لهم: إذا كان مثل هذا الرجل العظيم وغيره من الذين وقفوا حياتهم على ما ينفع البشريّة جمعاء بعلومهم ومخترعاتهم، لا يمكن - بحسب فهمكم - أن يدخلوا الجنّة شرعًا، لأنّهم لا ينطقون بالشهادتَيْن، أفلا يمكن أن يدخلوها عقلًا بفضل الله ورحمته، ما داموا يؤمنون بخالق السموات والأرض؟ . . قالوا: ولا هذه!!

«وغير هذه القصّة وتلك، ففي حياتنا اليوميّة الكثير ممّا يمكن رصده في ذلك الإطار. ولعلّ بعضنا يذكر ما كتبته في العام الماضي مجلّات ناطقة باسم بعض الجماعات الإسلاميّة، داعية إلى مقاطعة دورة موسكو الأوليميّة، بحجّة أنّ الاشتراك فيها هو من قبيل «موالاة الكافرين» المنهى عنه شرعًا!

«(. .) إنّ من الظلم الفادح أن يُحمّل ذلك كلّه على الإسلام، ومن الجهل المطبق أن يتعامل البعض مع هذه المقولات باعتبارها دينًا. فالدين الذي نعرفه هو ما أنزله الله في كتابه، وما أوحى به إلى نبيّه عليه

الصلاة والسلام، هو كلمة الله ووحيه سبحانه وتعالى. أمّا ما دون ذلك فهو في أحسن الفروض «فقه»، يؤخذ منه ويُرَدّ. وهو اجتهاد مارسه بشر، «وهم رجال ونحن رجال» كما قيل بحقّ.

«ومع ذلك فإنّ تلك الشواهد في مجموعها تطرح سؤالًا أساسيًّا هو: من أين جاء الخلل في علاقة المسلمين بغيرهم؟ هنا تقفز أمامنا أسباب عدّة، جديرة بالتأمّل...

○ «منها أنّ هناك سوء فهم بالغًا لنصوص الكتاب والسنّة، ناشئ عن قراءة مبتورة لبعض النصوص مثل الآية: كنتم خير أمّة أُخرِجت للناس، التي فُهمت على أنّها شهادة بالفوقيّة للمسلمين (لا يذكر أنّها معلّقة على شرط في الشقّ الثاني من الآية وهو: تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) (...).

○ «ومنها أنّ هناك سوء تقدير بالغًا في التعامل مع تلك النصوص، التي بات بعضنا يقرؤها بصرف النظر عن ملابساتها، اعتمادًا على مقولة إنّ «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب». وهي قاعدة فقهيّة يتبنّى القائلون بها الدعوة إلى إسقاط الأسباب، والتعامل مع النصّ مجرّدًا عن دوافعه - وهو نوع من القراءة المبتورة في الواقع - الأمر الذي أدّى إلى تثبيت وتعميم توجيهات وإجراءات كانت لازمة لتأمين الدعوة عند نشوئها. ومن قبيل تلك النصوص الآية ٣٩ من سورة الأنفال التي تقول: «وقاتلوهم حتّى لا تكون فتنة، ويكون الدين كلّه لله...»، وهي التي نزلت في مشركي مكّة والجزيرة العربيّة.

○ «ومنها أنّ اجتهادات الفقهاء التي بين أيدينا الآن، صدرت أغلبيّتها الساحقة في القرون الأربعة الأولى للإسلام (المذاهب الأربعة لأهل السنّة عرفت قبل منتصف القرن الثالث الهجريّ). وتلك مرحلة كانت لها حساباتها وموازينها الخاصّة، التي لا يمكن تعميمها على بقيّة مسيرة التاريخ البشريّ، وعلى سبيل المثال فإنّ الإسلام عاش طوال تلك الفترة في مواجهة عنيفة وضارية مع أعدائه سواء في الجزيرة العربيّة عند نشوء الدعوة، أو القوى الكبرى في عالم ذلك الزمان (الروم والفرس) الأمر الذي كان مقبولًا معه آنذاك أن يقسم العالم في أقوال الفقهاء إلى دار الإسلام ودار الحرب أو الكفر (...).

○ «ومنها أنّ الهزيمة الساحقة التي مُنِي بها المسلمون أمام الزحف

الغربيّ الذي أعقب انتصار الثورة الصناعيّة في القرن التاسع عشر، نتيجةً لظروف الانحطاط السياسيّ التي كان يعيشها عالم الإسلام، هذه الهزيمة لم تستنهض في المسلمين روح التحدّي - بسبب من واقعهم السياسيّ والفكريّ - وإنّما ألقت بهم في تيه الإحباط واليأس، ممّا خلّف في الأعماق شعورًا بالمرارة والرفض. وهي حالة نفسيّة فريدة يمرّ بها المهزوم عادة، إذا لم يستطع أن يستجمع قواه ويردّ ضربة غريمه، فإنّه سرعان ما ينكفئ على ذاته ويندب حظّه، ويترجم ذلك في صورة كراهية للغريم وقطيعةً له.

«يضاف إلى مجموع تلك الأسباب التي نحاول أن نفسّر بها ظاهرة الخلل في علاقة المسلمين بغيرهم، سبب آخر يتعلّق بتكوين الشخصيّة العربيّة، ألقى بظلّه على السلوك في عالم الإسلام، ضمن آثار ما يمكن أن نطلق عليه ظاهرة «تعريب الإسلام». وأعني بذلك شعور «الفوقيّة» الذي يخامر العربيّ منذ الأزل. وهو ما تسجّله بوضوح قصائد الفخر التي يحفل بها الأدب العربيّ، التي توحي لقارئها أنّ العرب هم فرسان البريّة الذين لا يقهرون، ومنبع الفضائل وشعب الله المختار.

«(. . .) لقد بات واجبًا أن تتضافر كلّ الجهود من أجل إزاحة تلك العتبات، ليس فقط تصحيحًا لواقع مختلّ، ولا لأنّ المسلمين صاروا بحاجة إلى الآخرين، ولا لأنّه أصبح مستحيلًا أن ينعزل المسلمون عن غيرهم في ظلّ ثورة الاتّصال التي يعيشها العالم الآن. . . فتلك الأسباب على أهمّيّتها لا تشكّل أولويّة في الدعوة الملحّة إلى ضرورة مصالحة المسلمين على غيرهم. إنّما السبب الأوّل والأهمّ هو أنّ هذا الواقع المختلّ يتناقض تمامًا مع الموقف الإسلاميّ الصحيح. ذلك أنّ كلّ انتقاص من قيمة الإنسان هو تشويه بالغ لتعاليم الإسلام، بل عدوان على حدود الله يجب أن يردّ!

«إنّ هناك حرمة يقرّها الإسلام لقيمة الخلق، للروح التي تسري في كائن حيّ، والتي هي «من أمر ربّي» بنصّ القرآن الكريم.

«وهذه الحرمة الواجبة الصيانة في التصوّر الإسلاميّ تمتدّ لتشمل مختلف مخلوقات الله، بما في ذلك الطيور والحيوانات. وليس من المبالغة في شيء أن نقول بملء الفم إنّ للحيوانات حقوقًا في الإسلام، يحاسب الله على التفريط فيها أو انتهاك حرماتها.

«(. . .) ومحمّد عليه الصلاة والسلام هو الذي روى لصحابته قصّة الرجل الذي سقى كلبًا ظمآنًا فشكر الله فغفر له، وسئل: أئن لنا في البهائم أجرًا يا رسول الله؟ فكان جوابه: في كلّ كبد رطبة أجرٌ!

«وهو الذي لم يكفّ عن الدعوة إلى احترام مخلوقات الله، فيقول في الحديث الشريف: إنّ الله كتب عليكم الإحسان في كلّ شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة (التمثيل بالجسد محظور في الإسلام)، وإذا ذبحتم (حيوانًا أو طائرًا) فأحسنوا الذبحة، وليستحدَّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته.

«(. . .) وإذا كانت تلك نظرة الإسلام إلى عامّة خلق الله، فما بالكم بخاصّة المخلوقات وأرفعها مقامًا: الإنسان؟

«إنّ الكتابات الإسلاميّة التي تعالج موضوع الإنسان من قريب أو بعيد، لا تكفّ عن ترديد عبارات التكريم والاستخلاف التي يحفل بها القرآن الكريم. وهي ترسم صورة رائعة بحقّ لقيمة هذا المخلوق العظيم، التي تحدّد ملامحها العديد من الآيات، في مقدّمتها قوله تعالى: ولقد كرّمنا بني آدم، وحملناهم في البرّ والبحر، ورزقناهم من الطيّبات، وفضّلناهم على كثير ممَّن خلقنا تفضيلًا (الإسراء - ٧٠). لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم (التين - ٤). ولقد خلقناكم ثمّ صوّرناكم ثمّ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم (الأعراف - ١١). وإذْ قال ربّك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفةً (البقرة - ٣٠). فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي، فقعوا له ساجدين (الحجر - ٢٩) إلى آخر الآيات في هذا السياق.

«إنّ تلك الآيات التي تمجّد الإنسان وتُعلي مرتبته فوق كلّ المخلوقات، تتناول الإنسان من حيث هو تكوين بشريّ، وقبل أن يصبح مسلمًا أو نصرانيًّا أو يهوديًّا أو بوذيًّا، وقبل أن يصبح أبيض أو أسود أو أصفر. .

«والمدهش في الأمر أنّ أكثر الكتابات الفقهيّة تكاد توحي لقارئها أنّ هذا المجد وتلك الحفاوة القرآنيّة من نصيب المسلمين دون غيرهم، رغم أنّ النصوص القرآنيّة شديدة الوضوح في هذه النقطة بالذات، فهي تارة تتحدّث عن «الإنسان» وتارة تتحدّث عن «بني آدم»، ومرّات أخرى توجّه الحديث إلى «الناس». وهذا التعميم لا تخفى دلالته على أيّ عقل

منصف ومدرك للغة الخطاب في القرآن الكريم، التي تستخدم موازين للتعبير غاية في الدقّة، تحسب بها متى يكون الخطاب للإنسان وللناس بعامّة، ومتى يوجّه الكلام للمؤمنين والمسلمين قبل غيرهم.

«حقًّا، فإنّه ليس هناك فيما أعلم كتاب فقهيّ يقصر التكريم في المواضع التي نحن بصددها على المسلمين دون غيرهم صراحة. ولكن المقطوع به أنّ أكثر الكتب الفقهيّة تعامل غير المسلمين عندما يتعلّق الأمر بأحكام المعاملات - دعك من العقائد والعبادات! - بقدر من «الدونيّة» لم يعد يليق بكرامة الإنسان، التي أثبتها القرآن بجلاء، حتّى صارت بمثابة وسام على صدره يعتزّ به، فضلًا عن أنّها وسام على صدر الإسلام ذاته، ليس لأحد أن ينزعه أو ينال منه.

تِلكُم أقوال الأستاذ فهمي هويدي تجيب، ببليغ الكلام وقوّة الحجّة وسداد المنطق، عن طروحات السيّد الحسنيّ. وكنّا نودّ لو لم نختصر الاستشهادات، إلّا أنّ خشيتَنا الإطالةَ حالت دون المراد. وقد لا نكون بحاجة إلى زيادة شيء على ما ورد في مقال العربيّ[٥]، إلّا أنّنا سندلو بدلونا أيضًا، ليُسْمَع صوت الجار بعد صوت أهل الدار، فتتنوّع المصادر وتعمّ الفائدة.

فليُسمح لنا إذًا بأن نعود إلى نصّ السيّد الحسنيّ ونردّ على اتّهاماته ببعض البراهين الإضافيّة:

ردّنا على اتّهامات السيّد الحسنيّ

١. «كلّ مَن لا يدين بالإسلام، فهو في نظر الإسلام كافر شقيّ»

لماذا التعميم هذا؟ فإن عدنا إلى القرآن الكريم نفسه لوجدنا أنّه لا يوافق قول صاحب التهمة. أما ورد في سورة البقرة (الآية ٦٢): ﴿إنّ

---

(٥) وبالرغم من ذلك نحيل القارئ على مقابلة قامت بها صحيفة نهار الشباب (العدد ٣٤٠، تاريخ ٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٩، ص ٣٢-٣٣) مع العلّامة السيّد محمّد حسن الأمين يبيّن فيها فضيلتُه، في ما يبيّن، وبحجج نيّرة، ظُلمَ مَن يكفّر سواه وينسب إلى تعليم الإسلام ما هو منه براء.

الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين مَن آمَنَ باليوم الآخِر وعمل صالحًا فلهم أَجْرُهم عند ربِّهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يَحزَنون﴾؟

وقد جاء أيضًا في سورة آل عمران (الآية ٥٥): ﴿إذ قال الله يا عيسى إنّي مُتَوفِّيك ورافِعُكَ إليّ ومُطهِرُك من الذين كَفروا وجاعلٌ الذين اتّبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾.

وفي سورة آل عمران أيضًا (الآيات ١١٣ إلى ١١٥) ما يُبعد عن أتباع الدين المسيحيّ تهمة الكفر: ﴿من أهل الكتاب أُمَّة قائمة يتلون آيات الله آناءَ الليل وهم يسجدون. يؤمنون بالله واليوم الآخِر ويأمرون بالمعروف وينْهَوْن عن المنكَر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين، وما يفعلوا من خير فلن يُكفَروه والله عليم بالمتّقين﴾.

أفلم يدرِ حضرة السيّد الحسنيّ أنّ المسيحيّين يصلّون ويسجدون ويؤمنون ويسارعون إلى أعمال الخير والمحبّة، حتّى محبّة أعدائهم ليقتدوا بالله خالقهم الرحيم الذي «يُطلع شمسه على الأشرار والأخيار» (إنجيل متّى ٥: ٤٥)، وليعملوا بتوجيه المسيح الذي حرّضهم على عدم كيل التُّهم جزافًا ولا تحقير سواهم، إذ أعلن: «مَن قال لأخيه يا أحمق، استوجب حكم المجلس» (متّى ٥: ٢٢).

إلى ذلك، أفلم يتنبه حضرة السيّد إلى ما ذكرته الآية القرآنيّة الكريمة التي أوردناها قبلًا من أنّ ﴿ما يفعلوا من خير فلن يكفروه﴾؟ فالله سبحانه، الرحمٰن الرحيم، والعادل المنصف، يعاملنا بحسب أفعالنا ونوايانا، ولن يكفّرنا إن كنّا من الساعين إلى الخير. أمّا الإيمان، فهو هبة مجّانيّة منه تعالى: فما ذنب مَن لم يدر بحقائق الدين أو مَن لم يقتنع، عن حسن نيّة، بما عُرض عليه من هذا الدين أو ذاك؟ هل أُكفِّر، أنا المسيحيّ، مَن لم يقتنع ببراهيني التي بها أبيّن «حقيقة» معتقدي؟ لا، هذا لا يجوز، فالإيمان لا يُبيَّن كما تُبيَّن المعادلة الحسابيّة، والله وحده هو الديّان، «الفاحص عن الكلى والقلوب» (رؤيا يوحنّا ٢: ٢٣).

٢. الكنيسة تحترم الإسلام والمسلمين

ومن تعاليم الكنيسة الكاثوليكيّة في هذا الصدد ما ورد (العامَ ١٩٦٥) عن المجمع الڤاتيكانيّ الثاني في بيانه حول علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحيّة، حيث جاء: «إنّ جميع الشعوب يؤلّفون أُسرةً واحدة: فهم جميعهم من أصل واحد (...) ولهم جميعًا غاية قصوى واحدة وهي الله الذي يبسط على الجميع كَنَف عنايته وآيات لطفه ومقاصده الخلاصيّة (...). لا جَرَم أنّنا، منذ أقدم الأزمنة حتّى يومنا هذا، نجد عند مختلف الشعوب حساسيّةً بالقوّة الخفيّة الحاضرة في مجرى الأشياء وأحداث الحياة البشريّة، بل نصادف أحيانًا الاعتراف بإله أسمى، بل بأب. وإنّ هاتين الحساسيّة والمعرفة تؤثّران في حياتهم تأثيرًا دينيًّا بالغًا» (...).

ويتابع البيان: «والكنيسة الكاثوليكيّة لا تنبذ شيئًا ممّا هو في هذه الديانات حقٌّ ومقدَّس، وتُولي تقديرها باحترام صادق، هذه الطرق المسلوكة في العمل والحياة وهذه القواعد والتعاليمَ التي، وإن اختلفت في أمور كثيرة عمّا تقوّل به هي وتعلّمه، تحمل، غير مرّة، قبسًا من شعاع الحقيقة التي تنير جميع الناس». هذا في ما يختصّ بالديانات غير المسيحيّة على العموم.

أمّا في ما يتعلّق بالمسلمين، فيقول البيان: «وتنظر الكنيسة أيضًا بتقدير إلى المسلمين الذين يعبدون الله الواحد، الحيَّ القيّوم، الرحمٰن القدير الذي خلق السماء والأرض وكلّم الناس. إنّهم يسعون بكلّ نفوسهم إلى التسليم بأحكام الله (...). ولئن كان قد وقع، في غضون الزمن، كثير من المنازعات والعداوات بين المسيحيّين والمسلمين، فإنّ المجمع يحرّضهم جميعًا على نسيان الماضي، والعمل باجتهاد صادق في سبيل التفاهم في ما بينهم (...)»[٦].

---

(٦) النصّ مقتبس من طبعة منشورات المكتبة البوليّة، جونيه وبيروت، ١٩٩٢.

٣. مبادرات حوار وتلاقٍ

من منطلق موقف الاحترام والانفتاح هذا، قامت، في لبنان على سبيل المثال، مبادرات يطيب لنا أن نذكّر بها.

ففي منتصف الستّينيّات، أي منذ أكثر من ثلاثين سنة، أسّست ثانويّة الرهبانيّة اليسوعيّة في بلدة الجمهور، قرب بيروت، تعليم الديانة الإسلاميّة لتلامذتها المحمّديّين، فكان أحد المشايخ الفضلاء يأتي كلّ أسبوع ويجتمع بالطلّاب في رحاب المدرسة وذلك بعلمٍ من أوليائهم وموافقتهم وتقديرهم البادرة.

وفي أثناء الحرب اللبنانيّة التي كادت أن تودي بالحجر والبشر، وفي خضمّ تيّارات التباعد والتقاتل، قامت جامعة القدّيس يوسف اليسوعيّة بإطلاق مراكز لها في المناطق ذات الأغلبيّة الإسلاميّة (طرابلس، صيدا، البقاع) إيمانًا منها بضرورة التعايش والتوادّ. كما أنّها احتضنت في العام ١٩٧٨ أوّل معهد أُسّس في لبنان للدراسات الإسلاميّة المسيحيّة، أسّسه راهب يسوعيّ هو الأب أوغسطين دُوبره لاتور وصديقه الدكتور هشام نشّابه، أحد وجهاء المسلمين ومثقّفيها في بيروت. ومنذ التاريخ ذاك راحت المعاهد المماثلة تتكاثر، فأُسّس في السنوات الستّ الأخيرة معهد في حريصا بإدارة المُرْسَلين البولسيّين، وواحد في جامعة البلمند الأرثوذكسيّة، وواحد في الجامعة الأنطونيّة، وجميعها يرعى المحاضرات والدروس واللقاءات المشتركة بين العلماء والحكماء والطلبة المسيحيّين والمسلمين.

٤. عمليًّا، معظم المسلمين يبادلون المسيحيّين الثقة والاحترام

فالحالة هذه، هل يجوز، يا حضرة السيّد الحسنيّ، أن ترشقنا بتهمة الكفر؟ وبعد ما قلناه، «هل يرضى بهذا عاقل»، على حدّ تعبيرك أنت؟ ثمّ، ما رأيك، أنت الذي يقول: «لا يجوز لمسلم يؤمن بالله ورسوله ﷺ ويغار على دينه، أن يتلقّى ما يصدر عنهم (النصارى) بثقة واطمئنان وحسن ظنّ»؛ ما رأيك بهؤلاء المسلمين الفاضلين الذين يثقون بنا

ويتعاونون معنا، إن في المجالات الاجتماعيّة أو الاقتصاديّة أو الثقافيّة؟[٧] ما قولك بالذين يقيمون الحوارات الوديّة مع رؤساء الدين المسيحيّين على جميع الأصعدة[٨]. وما رأي السيّد الحسنيّ بالنداء الذي وجّهه في أواخر تشرين الأوّل/أكتوبر الماضي، الرئيس الشيشانيّ والإسلاميّ المتشدّد أصلان مسخادوف إلى البابا يوحنّا بولس الثاني ليتدخّل لإنقاذ تشيتشينيا، قال: «باسمكم نطلب من كلّ العالم المسيحيّ التدخّل لإنقاذ الشعب الشيشانيّ من مجزرة جديدة. إنّنا نوجّه إليكم هذا النداء بعدما تولّد لدينا اقتناع تامّ بأنّ العالم الإسلاميّ غير مبال بمأساتنا»؟[٩] هل يُعقَل أن يلجأ الرئيس مسخادوف إلى «الكافر» رئيس الكنيسة الكاثوليكيّة لو لم يكن مستعدًّا لأن «يتلقّى ما يصدر عنه بثقة واطمئنان وحسن ظنّ»؟ أجل، فقد خبر مسخادوف وسواه من الرؤساء المسلمين المنصفين أنّ ما من رئيس دولة في الدنيا وقف للدفاع عن المظلومين كما وقف رأس الكنيسة الكاثوليكيّة. فلتُراجع، مثلًا، مبادراته المستمرّة للدفاع عن شعب العراق المظلوم. وإن كان البابا يوحنّا بولس الثاني يُعَدّ كافرًا في نظر السيّد محمّد الحسنيّ، فهو، في نظرنا ومنطقنا، وبدون أيّ شكّ لدينا، لا «شقيّ» ولا «ضالّ خاسر»، بل إنّه سعيد لأنّه يعطي، ويثير سبيل كثير من الضالّين، وهو بذلك رابح أجرًا عظيمًا. وهنيئًا

---

(٧) نشرت مجلّتنا المشرق في السنوات التسع الأخيرة، منذ عودتها إلى الظهور، عددًا كبيرًا من المقالات بقلم علماء مسلمين محضونا ثقتهم، فألّفوا دراسةً وبحثًا ومحاورةً. أطلب على سبيل المثال: ١٩٩١: ص ٢٨٣-٣٠١، ٣١٧-٣٢٩؛ ١٩٩٣: ٩٥-١٣٠؛ ١٩٩٤: ٨٣-١١٤، ١٥٣-١٧٤، ٣٦٥-٣٨٨، ٣٨٩-٤١٩؛ ١٩٩٥: ١٣٩-١٥٦، ٣٢١-٣٤٢، ٤١١-٤٣٠؛ ١٩٩٦: ٢٥-٤٨، ٤٩-٧٢، ١٨٥-٢١٤؛ ١٩٩٧: ١١٧-١٣٤، ١٤٣-١٨١، ٣٩٥-٤٢٦، ٤٢٧-٤٤٠، ٤٧٧-٥١٨؛ ١٩٩٨: ٧٣-٨٣، ٢٣٩-٢٤٩، ٣٠٧-٤٧٢، ٤٠٩-٤٤٠؛ ١٩٩٩: ١٥٩-١٨٣، ٣٤٣-٣٥٠، ٤٨٣-٤٩١...

(٨) لقد ذكرنا على صفحات المشرق بالذات (عدد تمّوز - كانون الأوّل/يوليو - ديسمبر ١٩٩٣) كيف انطلق الحوار الإسلاميّ-المسيحيّ في لبنان بُعَيد انتهاء الحرب (ص ٣١٥-٣٢٨)، وما زالت لقاءات التعارف والتعاون مستمرّة في هذا البلد وفي سواه من البلدان، والحمد لله.

(٩) راجع جريدة النهار، الجمعة ٢٩/١٠/١٩٩٩، ص ١٥.

لنا وللناس قاطبةً بمثل «الكافر» هذا الذي يدفعه إيمانه الصادق إلى القيام بما يقوم به.

كتاب آخر يتّهمنا بالكفر ويشنّع علينا

وما كنّا لنطيل الكلام لدفع تهمة الكفر عن المسيحيّين لو صدر ذلك الغمزُ من قناتنا عن كتاب السيّد محمّد بن علويّ وحده. ولكن وقع بين يدينا في الآونة هذه أيضًا كتاب آخر لمصنّفه السيّد عدنان ياسين، عنوانه **عيسى المسيح والحقيقة وأمّه مريم الصدّيقة**، صدر في بيروت بطبعته الأولى في شوّال ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

صحيح أنّ المؤلّف هذا ظهر منذ نحو أربعة عشر عامًا، في حقبة كان حبل الأمن في لبنان مضطربًا، ولكنّ الكتاب ما زال بين أيدي الناس في بيروت، وما زال يوجّه إلى المسيحيّين اتّهامات خطيرة نريد أن نلفت الانتباه إليها، لا لإثارة الجدل ولا النعرات، حاشا، فإنّنا نكرّر أنّ سلاحنا الوحيد هو المحبّة في إطار إحقاق الحقيقة، ولا نريد إلّا إيقاف مثل تلك التصرّفات.

لن نخوض في جميع ما يسوقه صاحب الكتاب المذكور معلنًا باستمرار أنّ الشياطين لعبت بعقولنا لتغوينا، بل سنتوقّف على مقطع واحد منه فقط، ورائدنا ما قاله هو عن نفسه: «لسنا من الذين يريدون بعملهم هذا إثارة النعرات الطائفيّة والبلبلات المذهبيّة، لكن يجب علينا أن نكشف الحقائق للخلائق خوفًا من الملامة يومَ التلاقي» (ص ٧-٨).

فقد ورد في الصفحة ٦٥، بعنوان نصيحة، كلام خاطب به الكاتبُ المسيحيَّ الذي يدعوه إلى الرجوع عن ضلاله، قال:

«فلا يستكبرْ مَن يقرأ رسالتنا هذه ويقول في نفسه: كيف أتركُ ما أنا فيه من الزعامة والجاه، وكيف أخالف عقيدة آبائي وأجدادي وأصحابي وعشيرتي القائلين بألوهيّة المسيح، فأُحرَم من أموالهم (...)؟ وكيف أتخلّى عن شرب الخمور وأكل لحم الخنزير، والتلذّذ بالنساء والفتيات (...)؟.

يُشفق الكاتب على المسيحيّين ساخرًا لأنّهم يشربون الخمر ويأكلون لحم الخنزير، في حين يحرّم الإسلام تناول هذا وذاك. أنت حرّ، يا حضرة الأستاذ عدنان ياسين، في اتّباع تعاليم دينك، ونحن نحترم معتقدك، ولا ننظر إليك بدونيّة بسبب ما يحلّله لك دينك في أمور يحرّمها ديننا، في باب الزواج على سبيل المثال. وكما أنّ معتقدك أمر جدير بكلّ احترامنا وإن كنّا لا نعتنقه، فمعتقدنا يستحقّ أيضًا أن تحترمه ولا تستخفّ به. ألم تنتبه إلى ما ورد في القرآن الكريم: ﴿لا يسخر قومٌ من قوم عسى أن يكونوا خيرًا منهم﴾ (الحجرات، الآية ١١)؟ أضف إلى ذلك أنّ ديننا لا يحلّل الأمور جزافًا، وحججه العقليّة والإيمانيّة بليغة: فإذا شربنا الخمرة وأكلنا لحم الخنزير فلأنّ السيّد المسيح نسخ ما بليَ من تعاليم العهد القديم التي جاءت في التوراة، وذكّرنا بصحيح ما ورد في أوّلها، إذ كُتِب، بعد ما رُوِي من خَلق الله العالمَ بجماده وحيوانه: «ورأى الله جميع ما صنعه، فإذا هو حسن جدًّا» (تكوين ١: ٣١؛ وكذلك ١: ١٠، ١٢، ١٨، ٢١، ٢٥). أجل نحن نرى أنّ الله لا يستطيع أن يخلق إلّا ما هو حسن. والخنزير هو مِن خلق الله ولا نرى أنّه أوسخ من الدجاجة التي كثيرًا ما تقتات من أكوام القمامة، ومَثَلٌ عاميّ مأثور طريف يقول: «كلّ ديك على مزبلته صيّاح»! وماذا تقول في الخمرة التي لم يتورّع السيّد المسيح نفسه من تناولها مع تلاميذه - الحواريّين - في عشائه الأخير معهم؟ وهو شراب قد يفيد إذا تناوله المرء باعتدال، ويضرّ حتمًا إذا ما بُولِغ في احتسائه، شأنه شأن الكثير الكثير من الأمور كالدخان أو المسكّنات نفسها، أو الطعام والنوم. وهل نحرّم استعمال السلاح لأنّه يقتل أحيانًا؟ فما القول عنه أداةً للدفاع عن النفس؟

ولكن ما يثير انزعاجنا جدًّا ويدعو إلى الامتعاض ويستوجب شديد الاستنكار، هو قول المؤلّف - سامحه الله! - إنّ المسيحيّين يتلذّذون بالنساء والفتيات.

المسيحيّون يتلذّذون بالنساء والفتيات؟!

لا، أبدًا! من أين جئتَ، يا صاح، «بالحقيقة» هذه؟ (وهل ندعو حقيقةً ما هو محض اختلاق وتجنٍّ؟) وفي أيّ من كتبنا وردت؟ فهل قرأتَ الإنجيل كما هو مطلوب إليكَ عندما تحكم علينا في الأمور هذه؟ إذن لوجدتَ ما قاله السيّد المسيح: «طوبى لأطهار القلوب فإنّهم يشاهدون الله» (متّى ٥: ٨)؛ ثمّ: «سمعتم أنّه قيل: لا تزنِ. أمّا أنا فأقول لكم: مَن نظر إلى امرأة بشهوة، زنى بها في قلبه. فإذا كانت عينك اليمنى سبب عثرة لك، فاقلعها وألْقِها عنك» (متّى ٥: ٢٧-٢٩)؛ ثمّ أيضًا: «مَن طلّق امرأته وتزوّج غيرها فقد زنى عليها. وإن طلّقت المرأة زوجها وتزوّجت غيره فقد زنت» (مرقس ١٠: ٨).

فهل علّمنا السيّد المسيح أن نتلذّذ بالنساء والفتيات، هو الذي دعانا إلى الطهارة التامّة، فلا نخطئ حتّى بالفكر؟ وطلب أن نحاسب أنفسنا بصرامة في هذا الشأن خشية التشكيك، وأن نقدّس شريعة الزواج متمسّكين بعدم انفصامه، مذكّرًا إيّانا بما جاء في التوراة أنّ «ما جمعه الله لا يفرّقه إنسان» وعلى المرء أن يلزم امرأته الوحيدة[١٠]. فهل يُعقل، والحالة هذه، أن نكون أمينين على إنجيلنا الطاهر لو تهافتنا على النساء واقتنينا السراري؟

ويا سيّدي الغيور على نقاوة ديننا، كيف تجسر وتتّهمنا بالسعي إلى التلذّذ بالنساء، نحن الذين شدّد معلّمهم البتول على البتوليّة التي منها انبثقت الرهبانيّة؟ فلا جَرَم أنّ الإسلام لا يقبل لنفسه بالرهبانيّة، ولكنّه يُشيد بالرهبان البتولين، إذ ورد في القرآن الكريم ما بات معروفًا لدى

---

(١٠) «دنا بعض الفرّيسيّين وسألوه ليحرجوه: هل يحلّ للزوج أن يطلّق امرأته؟ فأجابهم: بماذا أوصاكم موسى؟ قالوا: إنّ موسى رخّص أن يُكتب لها كتاب طلاق وتُسرَّح. فقال لهم يسوع: من أجل قساوة قلوبكم كتب لكم هذه الوصيّة. فمنذ بدء الخليقة «جعلهما الله ذكرًا وأنثى، ولذلك يترك الرجل أباه وأمّه ويلزم امرأته ويصير الاثنان جسدًا واحدًا، فلا يكونان اثنين بعد ذلك، بل جسد واحد. فما جمعه الله فلا يفرّقنّه الإنسان» (مرقس ١٠: ٢-٩).

القاصي والداني: ﴿ولتَجِدَنَّ أقربهم مودّةً للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى، ذلك بأنّ منهم قسّيسين ورهبانًا وأنّهم لا يستكبرون﴾ (المائدة ٨٢).

هل يسعى إلى الملذّات الشهوانيّة هؤلاء الألوف المؤلّفة من الرهبان والراهبات، والبتولين والمحصّنين والمحصّنات، الذين سمعوا دعوة المسيح وخصّوه بحبّهم، واستشهد عدد منهم في سبيل الحفاظ على طهارتهم، وكرّسوا حياتهم لخدمة المعذّبين المحرومين (كالأمّ تريزا)، والبرص (كالأب دميان الذي قضى بالجُذام وهو يخدم المجذومين)، وماتوا عوضًا عن سواهم (كالأب مكسيمليان كولبه في معسكر نازيّ إبّان الحرب العالميّة الثانية)، وهذه نقطة في خضمّ لا حدّ له.

وعليه، نأمل من الأستاذ عدنان ياسين، إن أعاد طبع كتابه، أن يُسقط منه تلك الأقوال التي أطلقها جزافًا، ويعرف أنّه إن ساءت سلوك بعض مَن يُدْعَون مسيحيّين - بحسب بطاقة الهويّة - فهم الشواذّ لا القاعدة، ولا تخلو ديانة في العالم من أتباع يتصرّفون على غير ما تدعوهم إليه شريعتهم. ونقول لصديقنا في ختام كلامنا إليه: لقد أخطأتْ سهامُك والأولى بك وبكلّ مَن يتّقي الله ألّا يتّهم أحدًا: «لا تدينوا لئلّا تُدانوا»، هذا ما قاله معلّمنا، وزاد وشدّد: «كما تدينون تُدانون (. . .) لماذا تنظر إلى القذى في عين أخيك؟ والخشبة التي في عينك أفلا تأبه لها؟»[11]

الخاتمة

ربّ قائل: «ما بالك أثرتَ المسألة هذه، وأبرزتَها على هذا النحو؟ فالكاتبان لم يتغيا الإساءة، وجلّ ما فعلاه أنّهما نقلا معتقد المسلمين، فهو الذي يكفّر المسيحيّين، وعلينا أن نسلّم بمعتقد الآخرين لأنّه واقع راهن، سواء كان لنا أو علينا».

---

(١١) متى ٧: ١-٣.

نقول ونكرّر ما سبق أن أعلنّاه: نحن نحترم عميق الاحترام معتقد جميع الناس، إلى أيّ ديانة انتموا. ولكن لا نقبل اللهجة التي سِيقَ بها القول بكفرنا - المزعوم بحسب معتقدنا. فمعروف أنّ اللهجة تَنْحى بالمعنى إلى حيث تريد. وما أسرف في تعداده السيّد محمّد بن علويّ تعدّى عتبة الاعتدال وغلّب الانفعال على الموضوعيّة في عدد من العبارات. وقد أظهرنا له كيف أنّ علماء ومثقّفين من الذين يشاطرونه المعتقد لا يشاطرونه أقواله، ويدعون إلى تبديل النظرة والسلوك[١٢].

ثمّ إنّنا مستاؤون من أقوال السيّد العلويّ المكّيّ لأنّها نُشرت في لبنان، البلد الذي قطع، في تلاقي المسلمين والمسيحيّين، مراحل وأشواطًا في السنوات الأخيرة، ومن الأفضل ألّا تُنْقَل إليه التيّارات المتعصّبة، ليظلّ موئل الحرّيّات وموطن التسامح والمحبّة، وبذلك يؤدّي شهادة للعالم أجمع[١٣]. وفي ما يتعلّق بأقوال السيّد عدنان ياسين، سامحه الله، فإنّ ما يمنحها «الأسباب التخفيفيّة» أنّها أُطلقت منذ ثلاث عشرة سنة، ولو صدرت اليوم لتحرّك القضاء لمحاكمة صاحبها كما تحرّك منذ شهرين في قضيّة مرسال خليفة. ورجاؤنا، على كلّ حال، أن يسحب المؤلّف كتابه من الأسواق لأنّه ظالم مهين.

وإنّنا، في نهاية المطاف، نقول: وددنا لو لم نُضطرّ إلى كتابة ما كتبنا، لأنّ قول الحقيقة مرّ المذاق لقائله وسامعه، ونحن لا نبغي للآخرين

---

(١٢) لا شكّ في أنّ القارئ اللبيب لاحظ أنّنا اكتفينا، لإبانة طرحنا، بالاستشهاد بردّ ورد على لسان أحد المسلمين، وبإيراد آياتٍ من القرآن الكريم عينه، وبذكر وقائع من الحياة الراهنة. أمّا البراهين الفلسفيّة واللاهوتيّة فضربنا عنها صفحًا لعدم الإطالة من جهة، ولأنّ الجدال الفكريّ لا يجدي في مناسبة كالتي نحن فيها.

(١٣) درجت مجلّة التقوى، الصادرة في لندن، على نشر المقالات التي تنعت فيها المسيحيّين بالكفر (أطلب، مثلًا، عدد جمادى الثانية ورجب ١٤٢٠هـ (٦ أكتوبر ١٩٩٩)، ص ١٢-١٣). وأصحابها يستفيدون من الحرّيّة التي ينعم بها، في إنكلترا، البلد المسيحيّ بأغلبيّته الساحقة، أتباع جميع الأديان ومنهم المسلمون. والإنكليز لا يُولون تُهم تلك المجلّة اهتمامًا، كما نحن لا نوليها مزيدًا من الاهتمام، ثقةً منّا بأنّ الحقيقة تدافع عن نفسها بنفسها، ولأنّ الأمر بعيد، نوعًا ما، عن لبنان. أمّا أن تثار الحساسيّات في بلدنا الذي ما كاد يتعافى من حربه، فهذا لا يجوز.

إلّا الخير ولا رائد لنا إلّا المحبّة. ومعروف عنّا وعن المجلّة التي نكتب فيها الآن مقالَنا هذا، أنّنا من عشّاق الحوار والداعين إليه[١٤].

وإن نحن لم نسكت على ما ساقه في حقّنا كتابا السيّدين محمّد الحسنيّ وعدنان ياسين، فلكي لا يُعَدّ سكوتنا علامة الرضى عمّا جرى. وإن عاتبنا فلأنّ «العتاب صابون القلوب» على حدّ القول المأثور. ومعلّمنا السيّد المسيح، البريء الذي قَبِل العذاب ليبيّن لنا ما تؤول إليه فظاعة الشرّ والخطيئة، لم يصمت عندما ضربه خادم رئيس الكهنة بدون سبب مقنع، فقال له: «إن كنتُ أسأتُ في الكلام: فبيّن الإساءة، وإن كنتُ أحسنتُ في الكلام، فلماذا تضربني؟»[١٥]

وكما رفعنا صوتنا للاحتجاج المسالم، على نحو ما فعل المسيح، نقتدي به أيضًا ونحن نختتم المقال. فلقد أوصانا في مناسبات كثيرة أن نغفر لمَن أساء إلينا، لا بل أن ندعو لمَن أهاننا. ونحن نمتثل، وندعو لمَن تهجّموا علينا، ونسأله تعالى أن يساعد الجميع على سلوك درب الأخوّة الصادقة، إنّه الحقّ والمحبّة، إنّه المجيب.

---

(١٤) أطلب، شهادةً على ذلك، المقالة التي سبق أن ذكرناها في الحاشية ٨، ومقالة أخرى شبيهة بها (المشرق، ١٩٩٩، ص ١٠٥-١١٨) وما رددناه في تمهيد ترجمتنا إلى العربيّة كتابَ الأب توماس ميشال الذي حوى محاضرات له في الإيمان المسيحيّ ألقاها بكلّيّة الشريعة الإسلاميّة في أنقرة. فقد قلنا آنذاك: «لا سبيل إلى العيش بسلام مع الآخرين، ولا مجال لمحبّتهم، بدون معرفتهم (...) ولا بدّ للمسيحيّ العربيّ من معرفة أخيه المسلم، رفيق عيشه، ولا مناص للمسلم العربيّ من معرفة أخيه المسيحيّ، ابن وطنه». ودعونا إلى «مزيد من البحث لاكتشاف ما عند إخوة لنا في التوحيد من غنًى وعمق إيمان يستوجب الاحترام» (الأب توماس ميشال اليسوعيّ، مدخل إلى العقيدة المسيحيّة، نقله إلى العربيّة الأب كميل حشيمه، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٩٥، ص ٧).

(١٥) يوحنّا ١٨: ٢٣.

صدر عن دار المشرق